

الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك

أَعْلَمَ أن المودة والأخوة والزيارة سبب التألف، والتألف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع، وركن شديد، بها يمنع الضيم^(١)، وتنال الرغائب، وتنتجح المقاصد. وقد منَّ الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، ورددها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَهْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٢)، ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذا جعلهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سنَّ رسول الله ﷺ الإخاء، وندب^(٣) إليه، وأخى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم، إذا يقولون ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾^(٤) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا في ذلك:

وما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم^(٥)

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونواب الحدثان وعون في السراء والضراء^(٦). ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه:

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عماد إذا استنجذتهم وظهور
وإن قليلاً ألف خل وصاحب وإن عُودوا واحداً لكثير

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب، إن لم تكن مثله شانتة. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة. قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى الحسن من كل شيء. قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت وهي أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب، ولبست اللين، وركبت

(١) الضيم: الظلم.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) ندب: دعا له.

(٤) سورة: الشعراء، الآيتان: ١٠٠ - ١٠١.

(٥) الأجذم: المقطوع جزء منه.

(٦) الضراء: الضرر والحاجة.

الفاره، وافترضت العذراء فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مؤنة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضي الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرؤه^(١) وشربت الأشربة حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا، حتى اخترت نعلي، ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تنوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا في معنى ذلك:

وما بقيت من اللذات إلا
وقد كنا نعدّهم قليلاً
محادثه الرجال ذوي العقول
فقد صاروا أقل من القليل

وقال ليبيد:

ما عاتب المرء اللبيب كفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح^(٢)

وقال آخر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة
فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

وقيل لابن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة. قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القرب، ولا ينسك على البعد، إن دنوت منه داناك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعنت به عضدك وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله: وأنشدوا في المعنى:

إن أحاك الصديق من يسعى معك
ومن إذا ريب الزمان صدعك
ومن يضر نفسه لينفعك
شئت فيك شملته ليجمعك

وقال غيره:

وليس أخى من ودني بلسانه
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً
ولكن أخى من ودني وهو غائب
ومالي له إن أعوزته النوائب

وقال أبو تمام:

من لي بإنسان إذا اغضبته
وإذا صبوت إلى المدام شربت من
وجهلته كان الحلم رد جوابه
وبقلبه ولعلته أدري به

وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أحب إليك. قال: الذي يسد خلتي، ويغفر زلتي، ويقبل عثرتي. وقيل: من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب، ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر:

(١) أستمرؤه: أستسيفه ويطيب لي أكله.

(٢) الرواية المشهورة للبيت. ما عاتب الحر الكريم كفسه.

وَمَنْ لَمْ يَغْمُضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ
وعن بعض ما فيه يَمُتُّ وهو عاتبٌ
وقال آخر^(١):

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مَعَاتِبًا
وإن أنتَ لم تَشْرَبْ مَرَارًا عَلَى الْقَدَى
صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي تَعَاتِبُهُ
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

وقالوا: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه، أو خلة لا تحبها، فلا تقطع حبله ولا تصرم^(٢) وده، ولكن داو كلمته، واستر عورته وابقه وابراً من عمله. قال الله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾^(٣)، فلم يأمره بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال عليه السلام: «الأرواح أجناد مجتدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن روحي المؤمنين ليلتقيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه». وفي ذلك قال بعضهم:

هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالسَّمْعِ قَبْلَ لِقَائِكُمْ
وخبِرْتُ عَنْكُمْ كُلَّ جُودٍ وَرَفْعَةٍ
وَسَمِعُ الْفِتَى يَهْوَى لِعَمْرِي كَطَرْفِهِ
فَلَمَّا التَقِينَا كَتَمْتُ فَوْقَ وَصْفِهِ
وقال آخر:

تَبَسَّمَ الثَغْرُ عَنْ أوصافكم فغدا
فَمِنْ هُنَاكَ عَشَقْنَاكُمْ، وَلَمْ نَرُكُّكُمْ
مَنْ طَيَّبَ ذِكْرَكُمْ نَشْرًا فَأَحْيَانَا
وَالْأَذْنَ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانًا

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه. ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه، ورجبة في لقائه، إلا نادته ملائكة من ورائه طبت وطابت لك الجنة. وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم، وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة. وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدواً. وقالوا: أعجب الأشياء ودُّ من يهودي، وحفظ من نصراني، ورياضة من دهري^(٤) وكرم من أعجمي، والحذر من الكريم إذا أهتته، واللثيم إذا أكرمه، والعافل إذا أخرجته، والأحمق إذا مزحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان، من أولئك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله، وبقي شاكراً ناشراً لجميلتك، يوليك عليها الإحسان الكثير الجزيل، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل، شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذره جهداً. قال عبد الله بن طاهر:

خَلِيلِيَّ لِلْبَغْضَاءِ حَالٌ مَبِينَةٌ
فَمَا تُنْكِرُ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ مِنْكَرٌ
وَاللَّحِبُّ آثَارٌ تُرَى وَمَعَارِفُ
وَمَا تَعْرِفُ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ عَارِفٌ

(١) تنسب هذه الأبيات لبشار بن برد.

(٢) صرم: قطع.

(٣) سورة: الشعراء، الآية: ٢١٦.

(٤) دهري هنا: معمر، طويل العمر.

وقال آخر:

وكنتُ إذا الصديقُ أراد غيظي
غفرتُ ذنوبَهُ وكظمتُ غيظي

وشرّقتني على ظمأً بريقي^(١)
مخافةً أن أعيشَ بلا صديقي

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جلّ همه
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا

صبوح وإن أسمى ففضل غبوق^(٢)
لضرّ عدوّ أو لنفّع صديقي

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا». كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالس رجل يجعل له نصيباً من ماله، ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها للذي فسح له فقال:

وكنت جليساً قعقاع بن شور
ضحوك السنن إن نطقوا بخير

وما يشقى بقعقاع جليساً
وعند الشر مطراق^(٣) عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لجليسي عليّ ثلاث: أن أرمقه بظرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغي له إذا حدّث. ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك بناره أذاك بدخانته. وكانت تحية العرب: صبحتك الأنعم، وطيب الأظعمة. وتقول أيضاً: صبحتك الأفالاح وكل طير صالح. ووصف المأمون ثمامة بحسن المعاشرة فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب^(٤). وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما في محله.

وقال ﷺ: «ذو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق رضي الله عنه. إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر. وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله، ولا يتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال. وخير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مرّ بسمعه أو لا يقطع عليه مما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول، وعدوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إذا أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخله فيه،

(١) أشرقه بريقه: ألزمه الحجة وتغلب عليه.

(٢) الصبوح والغبوق: من أسماء أزمته شرب الخمر.

(٣) مطراق: كثير الإطراق والتفكير.

(٤) السحاب مع الجنوب: الريح الآتية من الجنوب.

والمعرض لما لا يعنيه، والمتآمر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ويتعين على المجلس أن يراعي ألفاظه، ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليس ذا هيبة، فقد قيل: رُبَّ كلمةٍ سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد عليّ حديثاً قط. وقيل إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فأرمت طستاً من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي. فقال إن الله يقول: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾^(١) وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء^(٢) ما أحسست بها، ولا وجعت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل، وصلة كبيرة. وكان ابن خارجه يقول: ما غلبنى أحد قط غلبة رجل يصغي إليّ حديثي. وفي نوابغ الحكم: أكرم حديث أخيك بانصاتك، ووضئه من وصمة الثفاتك. وقيل: من حق الملك إذا تئاب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجله أو تمطى أو اتكأ، أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم من بحضرته. وكان أردشير إذا تمطى قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث، وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لي: قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأنني لم أسمع قط وقد سمعت به من قبل أن يولد.

وقيل بالمودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المسلمَيْن إذا التقيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت^(٣) ذنوبهما كتحات ورق الشجر. وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل: من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالتق عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر على أحد، وتحفظ من تشيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقتك، وكثرة التمطي والتشاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واصغ إلى كلام مجالسك. واسكت عن المضاحك، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين. ولا تلح في الحاجات. ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وفارك عندهما. وإذا خاصمت فانصف، وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى من وراءك، وأهدى غضبك وتكلم. وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك، وكلّمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده. وإياك وصدیق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك. ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالترم ترك الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج،

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) الغبراء: الأرض.

(٣) تحاتت: تفرقت.

وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم، وإن ظهرت المودة. ولا تتجشأ^(١) بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم. ولا تجالس العامة فإن فعلت فأداب ذلك تترك الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم^(٢)، والتغافل عما يجري من سوء أفعالهم. وإياك أن تمازح لبيباً أو سفيهاً فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه، ويجريء السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب تعالى، ويكسب الغفلة والذلة. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله عند قيامه. فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقول من مجلسه ذلك سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

وأما آداب المسائرة فقد روي أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير. فكان إذا جاءت نوبته في المشي مشى فيعزم أن لا يمشي، فيأبى ويقول: ما أنتم بأقدر مني على المشي، وما أنا بأغنى منكم على أجر. وقال ﷺ: لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي. وقيل: لا تتقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: نكته، وغيبته، ووفاته.

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة، العديمي المكافاة ليس عندهم لصديق مصافاة، فقال وهب بن منبه: صحبتُ الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقال لي عثرة، ولا ستر لي عورة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سَمِعْنَا بِالصَّدِيقِ وَلَا نَرَاهُ
وَأَحْسَبُهُ مُحَالاً نَمَّوهُ^(٣)
على التحقيق يوجد في الأنام
على وجه المجاز من الكلام

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا أشواكاً لا ورق فيه. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس، وأنكر من عرفت منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك صديق^(٤)؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير، وأنشد:

الناسُ إخوانٌ من دامت له نَعْمٌ والويلُ للمرءِ إن زلَّتْ به القَدَمُ

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر ببابه أحد من أصحابه الذين يألفونه في ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه ببابه ثانياً فقال:

(١) تجشأ: صوت يخرج من المعدة.

(٢) أراجيفهم: الأخبار التافهة.

(٣) التميمي: التحسين والترزين.

(٤) صوابها: «كم صديقاً لك؟».

فكلّما انقلبت يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهي وتبوا

لكنّهم في النائبات قليل

من ذي خداع يرى بشراً وأطافاً
وسرت في الأرض أوساطاً وأطرافاً
ولا أخاً ييذلّ الإنصاف إن صافي

فما نالني منهم سوى الهم والعنا^(٢)
خليلاً يوفني بالعهود ولا أنا

خلّ وفيّ للشدائد أصطفي
الغول والعنقاء والخل الوفي

فإنني به في ودّه غير واثق

فلا تأمن خليلك أن يخونا
ولكن قلّما تلقى أميناً

أودّك إن الرأي عنك لعازب
ولكن أخي منّ ودّني وهو غائب
وما لي له إن أعوزته النوائب

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
يعظمون أبا الدنيا فإن وثبت

وقال آخر^(١):

فما أكثر الأصحاب حين نعدّهم

وقال البحرني:

إياك تغتر أو تخدعك بارقة
فلسو قلبت جميع الأرض قاطبة
لم تلق فيها صديقاً صادقاً أبداً

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

خليليّ جرّبت الزمان وأهلّه
وعاشرت أبناء الزمان فلم أجذ

وقال آخر:

لما رأيت بني الزمان وما بهم
فعلمت أنّ المستحيل ثلاثة

وبيت مفرد:

وكلّ خليل ليس في الله ودّه

وقال آخر:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً
فإنك لم يخنك أخ أمين

وقال آخر:

تحبّ عدوي ثم نزعتم أنني
وليس أخي منّ ودّني بلسانهِ
ومنّ ماله مالي إذا كنت معدماً

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زور عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه بريء مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأنشد يقول هذه الأبيات:

(١) ينسب لأبي فراس الحمداني.

(٢) العنا: مخفف العناء.

تحالفَ الناسُ والزمانُ
عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ
يا أيُّها المعرضون^(١) عَنَّا
ومثله في المعنى:

أحوك أحوك مَنْ يدنو وترجو
إذا حازنتَ حازبَ مَنْ تعادي
وقال أبو بكر الخالدي:

وأخ رخصتُ عليه حتى ملّني
ما في زمانك من يعزُّ وجوده

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا مَنْ له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكلُّ محبّةٍ في الله تبقى
وكلُّ محبّةٍ فيما سواه

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرَةَ الأشرار، ويترك مصاحبةَ الفجار، ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته: قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وما من دابةٍ في الأرضٍ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم﴾^(٤) فأثبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم، وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة؛ فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم.

ولهذا تجد أخلاق الخلائق مختلفة، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلاتقه، غليظاً في طباعه، قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه، فألحقه بعالم النمورة. والعرب تقول: أجهلُ من نمر: وإذا رأيت الرجل هجماً على أعراض الناس فقد مائل عالم الكلاب. فإن دأب الكلب أن يجفو من لا يجفوه، ويؤذي من لا يؤذيه، فعامله بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألسنت تذهب وتتركه؟ وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا وإن قلت لا قال نعم: فألحقه بعالم الحمير فإن دأب الحمار إن أدنيتُه بُعد، وإن أبعدتُه قُرب، فلا تتضع به ولا يمكنك مفارقتة. وإن رأيت إنساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحقه بعالم الأسود. وخذُ حذرَكَ منه كما تأخذ حذرَكَ من الأسد. وإذا بليت بإنسانٍ خبيث كثير الروغان فألحقه بعالم الثعالب. وإذا رأيت مَنْ يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرق بين الأحبة فألحقه بعالم الظربان^(٥)، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة: مشى بينهم ظربان ففترقوا^(٦). وإذا رأيت إنساناً لا

(١) المعرضون: المتصرفون.

(٢) الحلفاء: نبت.

(٣) سورة: الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) سورة: الأنعام، الآية: ٣٨.

(٥) الظربان: حيوان تنن الريح.

(٦) تفرقوا: مثل للتفرق بسبب النميمة.

يسمع الحكمة والعلم، وينفر من مجالسة العلماء، ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقه بعالم الخنافس فإنه يعجبها أكل العذرات، وملامسة النجاسات، وتنفر من ريح المسك والورد، وإذ شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها. وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعلمها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته، وينظر في عطفه فألحقه بعالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات، فألحقه بعالم الجمال. والعرب تقول: أخفد من جمل. فتجنّب قرب الرجل الحقود. وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم، فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه، والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها، فقد قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتباذلين فيّ والمتزورين فيّ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» وقال ﷺ: «من عاد مريضاً، أو زار أخاً، نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً» وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة. قال الشاعر:

زُرْ مَنْ تَحَبُّ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ^(١) الدائرُ
وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حَجَبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ
إِنَّ الْمَحَبَّ لِمَنْ يَهْوَاهُ زَوَارُ

ولتكن الزيارة عبثاً^(٢) لقوله ﷺ: «زُرْ غَبّاً تَرَدَّدْ حَبّاً» قال الشاعر في معنى ذلك:

عليك بأغباب الزيارة إنها
إذا كثرت صارت إلى الهجر مسلماً
ألم تر أن الغيث يُسأم دائماً
وُسألُ بالأيدي إذا هو أمسكا

ويقال: الإكثار من الزيارة مملّ، والاقبال منها مخلّ. وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إذا ما تقاطعنا ونحن ببلدة
فما فضلُ قربِ الدارِ منا على البعدِ
وقال آخر:

وإنّ مروري بالديار التي بها
سليماً ولم ألمم بها لجفَاء
وقال آخر:

قد أتانا من آل سعدى رسولٌ
حَبَّذا ما يقولُ ليّ وأقولُ
وقال آخر:

أزور بيوتاً لاصقاتٍ بيوتها
وقلبي في البيت الذي لا أزوره
وزار محمد بن يزيد المهلبى المستعين، وهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضاً فقال:

وخصّصتني بزيارة أضحى لنا
مجددٌ بها طولَ الزمان مؤثلاً^(٣)
وقضيت ديني وهو دين وافر
لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

(١) شطت: نأت وبعدت.

(٢) الغب: الزيارة يوماً بعد يوم.

(٣) المجد المؤثّل: الأصيل.

نحنُ في أفضلِ السرورِ ولكنْ ليسَ إلا بكم يتسمُ السرورُ
 عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غبثتم ونحنُ حضورُ
 فأجدوا الميسرَ بل إن قدرتم أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا

وقيل لفيلسوف: أي الرسل أنجح؟ قال: الذي له جمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولا في حاجة فاتخذوه حسن الوجه، حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تبعث رسولا جاهلا، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فكن رسول نفسك وقال بعضهم:

إذا أبطأ^(١) الرسولُ فقلْ نجاح ولا تفرخْ إذا عجلَ الرسولُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبطأ: مقصور أبطأ.